

بشار يتكلم مع شبيح ...



يحكى أن شاباً اسمه بشار كان يحكم سوريا، وكان الناس وقتها يعيشون في أمن وأمان وسلام واطمئنان، ولكنهم مع أنفسهم وأمانهم يشعرون باختناق غريب لم يعرفوا له أصلاً ولم يعثروا له فصلاً، فظاهر مشاعرهم شيء وباطنها شيء مغاير، جمال حياتهم يذكرها شعور خفي خانق.

راجع هؤلاء الناس عيادة نفسية عليهم يجدون حلّاً لمشكلتهم، فلم يعثروا على سبب، قالوا ما لنا لا نرجع لسيادنا وقائداً الفذ الخلوق بشار، فهو من سيخلصنا مما نحن فيه،

قال لهم بشار: أيها الشعب السوري العظيم، إن ما تشعرون بهم ما هو إلا بعض وساوس شيطانية لا أساس لها من الحقيقة فلا تستلموا لحبائل الشيطان ولأعبيه.

ظل الناس على تلك الحال فترات طويلة، يعيشون حياة الكدر تارة، وحياة الحيرة تارة أخرى. بعد عشر سنين من البحث والتجسي، ادعى شاب بسيط اسمه ثائر الشامي يليس قميصاً أزرق، أنه توصل لمعرفة سبب هذا الاختناق، وكيف يمكن معالجه.

قال الشاب: إخواني الكرام، مشكلة هذا الاختناق واضحة للعيان وعلاجه يتمثل في أبسط الكلام، فما عليكم إلا أن تهتفوا في

شوارع المدينة مرددين بأعلى أصواتكم كلمة واحدة: حرية، حرية، ثم تأملوا كيف ستتفرق أساريركم ويدوّب هذا الاختناق. سخر الناس من صغر سن ثائر قيل أن يسخروا من سذاجة فكرته، فهل يُعقل أن تزيل كلمة واحدة جبل الاختناق الجاث على قلوبنا فترات طويلة، فهذا الجبل عجز عن إزالته أطباؤنا وكبار مثقفينا وساستنا الأوفياء بمن فيهم قائدنا المحنك بشار، فكيف يأتي صبي مجهول يقابع هؤلاء الأفذاذ والمفكرين؟ إنه أمر يدعو للسخرية والضحك.

حاول هذا الشاب البسيط أن يختبر نفسه بنفسه فعالية هذا العلاج، فخرج ومعه ثلاثة من أصحابه يجوبون شوارع المدينة صارخين: حرية، حرية.

وبينما كان هؤلاء الشباب يرددون كلمات الحرية كانت الناس ترقبهم بنظرات الاستغراب ونظارات التشكيك. لم يختلف الأمر، في الغد مارس هؤلاء الشباب مع شبان آخرون نفس المشهد ونفس الكلمات فلقد ذاقوا في تمرينهم الأول أثراً جميلاً، رددوا جميعاً شعارات الحرية، قائلين: الله، سوريا، حرية وبس.

انضم إلى ذلك الجمع جمع آخر يسيرون حيث يسيرون ويرددون ما يرددون، بعضهم انضم بدافع التسلية وبعضهم بدافع الفضول، شيئاً فشيئاً تزايدت الأعداد وكثير الناس واكتظت ساحة المدينة بهم حتى غاب في الزحام الشاب ثائر الذي بدأ المسيرة.

الحقيقة الساحرة هي أن ترديد كلمات الحرية أوقعت في نفوس الحشود جمالاً فتاناً فتح جبل الاختناق الصخري الذي كان جائحاً على كاهلهم أمداً طويلاً.

بعد أسبوع وأسبوعين، خرج ناس كثُر أكثر ممن كانوا بالأمس لا يجوبون شوارع المدينة فحسب بل يجوبون شوارع الشام، لا يقودهم قائد ولا يشرف على تنظيمهم مشرف، كلهم جاءوا للبحث عن علاج داء الاختناق بدواء الحرية، وبينما هم يسيرون في تظاهراتهم ونداءاتهم، استوقفهم جنود بشار.

قالوا لهم: ماذا تعملون، أيها الكرام؟

قالوا: يا جنودنا البواسل، أبلغوا قائدنا بشار السلام، وأخبروه أننا ولله الحمد وجده حلّ لمشكلة مرض الاختناق، وأننا بالجلسات اليومية ونداً آتنا بالحرية نتحسن، ويتحسن مذاق الحياة يوماً بعد يوم.

قال لهم الجنود: ألم تعلموا أن هذا العلاج ممنوع.

قالوا: وما العيب في هذا العلاج؟

قالوا: هذه أوامر قائدنا العظيم. وهو أعلم بمصلحتنا ومصلحتكم، فما علينا وعليكم إلا السمع والإذعان.

قالوا: أبلغوا قائدنا إننا ماضون فيما نحن عليه، وأننا وقعنا على كنز جميل ولن نفرط فيه مهما كلف الأمر.

رد عليهم الجنود قائلين: لا بأس، إن كنتم عازمين على ما أنتم عليه، فعليكم أن تذهبوا للنادي الكبير وتسجلوا أسماءكم وتطلبوا إذن بالسماح لهاتفاتكم.

قالوا: هذا أمر يستحيل، لأن هذه النداءات لا تحدث أثراً ما لم تأتي بتلقيتها وتكون من قلب لا يخاف ولا يهاب، وطلب الإذن يلغى مفعول أثرها السحري، ولقد تعلمنا من نداءاتنا أن الحرية معناها أن تعبر بما في نفسك دونأخذ إذن من أحد.

سارت التجمعات وعلت أصوات الهتفات، وتزايدت الأعداد يوماً بعد يوم، جاء جنود بشار لمكان التجمعات ولكنهم هذه المرة لم يأتوا ليحاوروا ولكن ليحضروا ويقمعوا، هذا الضرب وهذا الاعتداء غير رأي المتجمهرين في واليهم بشار الذي كانوا يرون فيه شخصية القائد الخلق، لقد تأكد لهم من اللحظة تلك، أنهم مخدوعون في قائهم، فلم يعد في نظرهم محباً لهم ولم يعودوا محبيهم له. ما دام أنه يمنعهم من كلمة النطق بالحرية، تلك الكلمة التي تمثل البلسم الشافي لمرض الاختناق البغيض. غير الناس وجهة الحب من عشق بشار إلى عشق الحرية، وكان هذا واضحاً في أحد هتفاتهم: حرية للأبد غصباً عنك يا أسد، ما بنحبك ما بنحبك، إذهب عنا أنت وحزبك، عاشت سوريا ويسقط بشار الأسد.

هذه الهتافات زادت من غضب بشار وجنوده، فتحولت بوصلة الضرب إلى بوصلة القتل وبوصلة السجن إلى بوصلة التعذيب.

لم يذعن الثوار ولم يستسلموا أو يلينوا، بل تطور الأمر إلى أن تصاعدت مطالبهم وتصاعدت هتافاتهم ليخرجوا بأجمل سيمفونية الحريات، إنها سيمفونية: الموت ولا المذلة، الموت ولا المذلة.

استمرت التظاهرات، واستمر نشيد الحريات مدن الشام وأريافها، واستمر جنود بشار على أسلوب القمع والقتل، واستمر القتل وتزايدت أعداده يوماً بعد يوم، فمرة تكون الغلة عشرون قتيلاً، ومرة يكونون ثلاثون، ومرة خمسون، أو ثمانون أو مائة وعشرون.

ما لاحظه بشار وأخافه كثيراً هو أنه بازدياد عدد القتلى يزداد عدد المتظاهرين، إنها معادلة غريبة.

أقلق هذا الأمر بشار وفكّر أن يعيد حساباته ويحل مشكلته بأسلوب مختلف، ففكّر في التنازل للعرش لنائب له يدعى فاروق، وبينما هو يتدارس الأمر دخل عليه أهله وذويه يحذرونه من خطورة هذه العملية وحذروه من اتباع أي أسلوب سوى أسلوب القوة الذي سار عليه والده المقتول حينما كان يتعامل مع المحتجين من قبل، وذكروه أن أباه الأسد لم تذعن له الشام إلا بعدما أحرق مدينة حماة بأكملها.

عاد بشار يمشي خلف خطى والده، القمع والقتل وهتك الأعراض وقتل الأطفال بكل وحشية ممكنة على ذلك أن يخيف الناس ويقتل شجاعتهم، لكن أمراً غريباً بدأ يلوح في الأفق، وهي أن آلة القتل لا تقتل المحتجين بل تقتل مخاوفهم، وأن آلة القمع لا تcum المحتجين بل تcum مشاعر خوفهم.

وشيء آخر أكثر من هذا غرابة، أن جنوده لم يعودوا على قلب واحد، فقد فرّ الكثير منهم وانضموا مع مسيرات أهليهم. بدأ اليأس يأخذ من بشار مأخذة، وبدأ الخوف يتملك قلبه وفكره.

جالته حالة فزع شديد، فكر أثناءها في أن يهرب إلى حيث لا يعلم أحد، جهز نفسه وحزمه حقيبة، وبينما هو بهم بالخروج من قصره، قابله على باب القصر أهله وذويه، منعوه من الهروب وحذروه منه وقالوا له: إن هروبك يعني موتنا جميعاً.

قال لهم: لا بأس نهرب سوياً.

قالوا له: الحلول كثيرة، والأفكار عديدة.

قال لهم: هاتوا لي حلأً فاعلاً فلم يعد قتالهم يفيد ولا قمعهم يخيف.

قالوا: عذرًا يا قائداً العظيم، لم يبقى لنا سوى الحلول الشيطانية.

قال: وما المشكلة في الحلول الشيطانية؟، فقتل الأطفال وهتك الأعراض هي أيضاً حلول شيطانية لكنها لم تجدي نفعاً.

قالوا: الحل يكمن في أن تدخل كل أطياف طائفتنا العلوية معنا في المعركة.

قال: وما الجديد؟، هم معنا.

قالوا: ليس هذا ما نقصده.

قال: وماذا إذن؟.

قالوا: نورطهم معنا بأساليب شيطانية.

قال: لم أفهم، وضحوا لي أكثر؟

قالوا: نقتل بعضهم ونفجر حاراتهم، ولنلصق التهمة بالطائفة الأخرى، كي تقع حرب بين الطائفتين، عندها نأتي نحن بقواتنا الباسلة، بالطائرات والأسلحة الكيماوية، نبيد من نشاء ونبقي على من نشاء.

سمع بشار بالفكرة وأدارها في ذهنه ورحب بها كثيراً حتى أمر جنوده في الحال أن يعملوا بموجبها.

نجحت الواقعة وتقاتلت الطائفتان مع بعضهم، لكن الأمر لم يدم طويلاً، إذ تنبهت الطائفة المكيدة، ولأجل أن تعيد الطائفة لحمتهم، جالوا معاً في شوارع المدينة، العلوي يمسك بيد السنّي والمسحي والدرزي، كلهم يرددون شعاراً واحداً: واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد.

عاد بشار إلى ذويه يشكوا لهم فشل خديعه وفشل سياسة "فرق تسد".

قالوا له: لا تتعجل، استمر أيها القائد على هذه السياسية فلا بد أن تثمر يوماً ما، ولا تنسي أن هنالك من يدعمنا من أصدقائنا الفرس والروس والصربيون وحزبك في لبنان، فمن هؤلاء من هو مختص في العون السياسي ومنهم مختص في الفبركات وخلق الشجارات ومنهم مستعدون لأن يمدونا بكل أنواع أسلحة القمع والإبادة.

ثم قالوا له: ونحن مع مدد أصدقائنا نستمر في خلق الشجارات بين الطوائف، ولا بد يوماً أن تشتعل ناراً لا ينطفئ فتيلها.

قال لهم: تقصدون نشعل الحرب الأهلية، وأنتم تعلمون أن الحرب الأهلية ليس فيها غالب ولا مغلوب.

قالوا: وما المشكلة في ذلك، نحن نريدها حرباً أهلية.

قال: الحرب الأهلية تعني إشعال نار مستدامة بين حارات الشام كلها لا يمكننا السيطرة عليها.

قالوا: نعم، وهذا ما نريده، إننا لا نريد أحداً سواك أيها الأسد، نعم، الأسد أو لا أحد، الأسد أو تحرق البلد.

قال: ثم ماذا بعد.

قالوا: عندها لا يكون هنالك حل سياسي للطائفتين سوى حل التقسيم، أن تُقسم دولة سوريا إلى قسمين، قسم نسميه سوريا الأسد، والقسم الآخر نسميه سوريا العرب، أنت من يحكم دولة سوريا الأسد، ولك أن تجعل حدوداً لها مع البحر ومع صديقنا إسرائيل وأبناء عمومتنا في لبنان، ويكون البحر لنا والماء لنا والسلاح كله لنا، وندع القسم الآخر في سوريا لهؤلاء الرعاع حيث الفقر والمرض والفوضى.

قال لهم : هذا شيء جميل ومخطط حكيم، ولكن لا أظن أن يتركنا العالم أو العرب وشأننا.

قالوا له: لا تأبه، العالم كله يتفرج على بطولاتك، والعرب صوت لا يهش ولا ينش. ها نحن نحدث مقتلة كبيرة في أطفال الحولة وكل ما في الأمر شجب هنا أو استنكار هنالك.

انشرحت أسارير بشار وتخيل مملكته الجديدة وتخيل انتصاراته، ثم ما لبث قليلاً حتى سمع وهو في قصره صوت طفل يهتف من بعيد: الموت ولا المذلة، تخيل أن الصوت يردد طفل من أطفال الحولة الذين قتلهم بسجين عصابة، تخيل منظر قتلهم. تحولت حال مشاعر زهوه وانبساطه إلى مشاعر ضيق وكدر، عادت إليه كوابيس أطفال الحولة والقبر ومجازره في جميع أقطار سوريا، عاوده شعور خوف هلع شديد، ارتعشت أطرافه، انتفض جسمه، ارتعد وارتعد حتى بدا وكأنه مصروع.

حاول أهله أن يهدئوا من روعه، إلا أن عبارات التهديد ما عادت تجدي وأدوية التنويم ما عادت تعمل، وبينما هو يعاني ويعاني، تضاعفت عليه نوبة الهلع، حتى دفعته لأن يأخذ حقيبته يريد الهرب إلى حيث لا يدرى.

قال له أهله: إلى أين؟.

قال: سأهرب إلى حيث ما يكون.

قالوا له: لن ندعك.

قال: لم أعد أكترث ولم أعد أطريق. نبهه أهله وحذروه مراراً وتكراراً، لكنه لم يستجب لهم. يبدوا أنه هذه المرة مصر على الهراب، أدار ظهره لهم يريد الخروج، وبينما هو كذلك، أطلق أحد ذويه النار عليه عند باب القصر فأرداه قتيلاً، نازع بشار الموت ثم نازعه، حملته أمه التي كانت ترصد الموقف على حجرها.

قال لها كلمة وداع: الآن ريحتموني وأرحتوني. نعم لقد كان أطفال الحولة والقبر هم السيف الذي قسم رقبة بشار.

